مستويات حضور التراث التاريخي العربي في شعر أمل دنقل

أ. خيـرة جريـو

يمثل التراث التاريخي مَعينا مهما يرفد الأعمال الأدبية، ويسهم في تكثيف دلالاتها، إثراء مضامينها، سواء أكانت هذه الأعمال شعرا أم نثرا. ولعل من بين الأعمال التي أسهبت في الاتكاء على التراث التاريخي بمختلف مستوياته ومظاهره في إبداعنا العربي المعاصر، نجد الخطاب الشعري الذي استند إليه بقوة، متخذة إياه " منبعا ثرا من منابع الإلهام الشعري، والذي يعكس الشاعر من خلال الارتداد إليه روح العصر، ويعيد بناء الماضي وفق رؤية إنسانية معاصرة، تكشف عن هموم الإنسان ومعاناته وطموحاته، وأحلامه، وهذا يعني أن الماضي يعيش في الحاضر، ويرتبط معه بعلاقة جدلية تعتمد على التأثير والتأثر" [1].

فالشاعر المعاصر، وهو يسعى جاهدا لاستحضار التراث بكثافة ، لا ليعيد صياغته لنا وحسب، وإنما يسعى من خلال توظيفه إياه إلى إنتاج دلالة شعرية معاصرة تتماشى وأوضاع العصر الراهنة.

أمل دنقل وحضور التراث :

يعد أمل دنقل من أبرز الشعراء العرب المعاصرين الذين تعاملوا مع التراث التاريخي بوعي لافت ، إذ استطاع انجاز قصائد شعرية متميزة من خلال احتفائه بالتاريخ العربي واستدعائه لأحداث وشخصيات تاريخية بارزة شكلت لبنات عضوية في بناء قصائده، ولعل مجاميعه

(البكاء بين يدي زرقاء اليمامة، تعليق على ما حدث، أقوال جديدة عن حرب البسوس ...) أصدق مثال على ذلك في الكشف عن أعماق الانهيار المكبوت في نفسية الشاعر، بسبب فظاعة الممارسة الإسرائيلية ضد الشعب العربي من جهة ، ومن جهة أخرى علاقة المثقف العربي بالسلطة الغاشمة، الشيء الذي جعله يرتد إلى أعماق التاريخ لينتقي ويصوغ منه أحسن النماذج القادرة على التعبير عن رؤاه المعاصرة.

فقد اتخذ الشاعر من الرموز التاريخية التي استحضرها في شعره مرايا ينعكس عليها حاضره المؤلم، وواقعه المحزن، وما سنحاول تفحُّصه، في هذه المقالة المختصرة، مقتصرين على عنصري : **الأحداث التاريخية والشخصيات التاريخية، بمستوييها الرئيسي والثانوي، مرجئين الحديث عن عناصر أخرى إلى دراسة لاحقة بحول الله.**

1- الأحداث التاريخية:

اتكأ أمل دنقل على ثلاثة أحداث لها صد

ى عميق في التاريخ العربي (**حرب البسوس، موقعة حطين، مجازر أيلول عام 1975**) ، من أهمها "حرب البسوس"؛ هذه الحرب التي وقعت بين بكر وتغلب ابني وائل، فمكثت أربعين سنة، وقد سميت هذه الحرب باسم صاحبتها " البسوس" التي أثارت بينهما الفتنة، كانت البسوس من بنمي تميم ، وقد ضرب بها المثل فقالوا: "أشأم من البسوس" والبسوس هي خالة جساس بن مرة الذي غدر بكليب من أجل ناقتها التي قتلها كليب ، فكان مقتله على يدي ابن عمه جساس [2] .

أراد الشاعر من خلال هذه الحادثة أن يعبر تعبيرا مباشرا عن الحاضر، إذ استطاع أن يوازي بين حكاية مقتل كليب، وهزيمة العرب ، فحرب البسوس هنا هي " الصراع العربي الصهيوني الذي ينبغي أن يطول، كما طالت حرب البسوس، لأن الحق مازال مضاعا – فالذي اغتالني محض لص-سرق الأرض من بين عيني- إنها في قاموس أمل أن – لا تقتسم مع من قتلوك الطعام- وهو يطلب غير القليل، إنه الدفاع المشروع عن النفس، انتفاضة الجسد أمام قهقهات الخنجر الغادر" [3]، ومن هنا أسرع ينظم رائعته "لا تصالح" في ديوانه أقوال جديدة عن حرب البسوس الذي خصّه لشهادتين فقط، مقتل كليب، ومراثي اليمامة، وقد استوحى الشاعر مشهد مقتل كليب واستهل قصيدته بوصايا هذا الأخير (كليب) لأخيه الأمير سالم الزير الواردة في القصة.

لجأ أمل دنقل إلى هذه القصة يستدعي منها صيغتها التحريضية، لا ليشتغل عليها أو يعيد صياغتها فحسب، وإنما ليعبر من خلالها عن جو الهزيمة آنذاك رافضا الاستسلام للعدو الإسرائيلي وعدم توقيع أي اتفاقية معه، وأنشأ يقول :

لا تصالح !
.. ولو منحوكَ الذهَب
أترى حين أفقأُ عينيكَ،
ثم أثبّتُ جوهرتين مكانهما ..
هل ترىَ ..؟
هي أشياءُ لا تُشترى ..

.....

لا تصالح على الدمِ .. حتى بدم!
لا تصالح! ولو قِيلَ رأسٌ برأسٍ!
أكُلّ الرؤوس سواءٌ؟!
أقلب الغريبِ كقلبِ أخيكَ؟!
أعيناه عينا أخيك؟!

.....

لا تصالح
ولو توَّجوكَ بتاج الإمارة.
كيف تخطو على جثةِ ابن أبيكَ..؟
وكيف تصير المليك..
على أوْجُهِ البهجةِ المستعارة؟ [4]

لقد وجد أمل دنقل في هذه الحادثة التاريخية معادلا موضوعيا للواقع الذي يعيشه العالم العربي راهنا، ومحفِّزا مهما يعمل على تحريض الشعب العربي لنبذ الإستسلام للعدو، و دفعه إلى المقاومة والمكافحة من أجل تحقيق الحرية، هذه الأخيرة التي ظل ينشد لها في معظم أعماله الشعرية، فمقتل كليب في نظره هو الراهن العربي، ودماؤه هي عار العرب، ولابد من الأخذ بالثأر وعدم التراجع إلى الوراء:

إنها الحربُ!
قد تثقل القلبَ
لكن خلفك عارَ العرب لا تصالح

ولا تتوخَّ الهرب! [5]

ومن هنا جاء استخدام الشاعر لحرب البسوس تعبيرا عن روح العصر وهموم الواقع المكتظ بأكثر من كليب وجليلة واليمامة والمهلهل وجساس، ويشرح أمل دنقل موقفه الفكري إزاء توظيفه لهذه الحادثة التاريخية فيقول:" حاولت أن أجعل من كليب رمزا للمجد العربي القتيل أو للأرض العربية السلبية التي تريد أن تعود إلى الحياة مرّة أخرى ولا نرى سبيلا لعودتها أو بالأحرى لإعادتها إلا بالدم .. وبالدم وحده..

وهذه المجموعة عبارة عن قصائد مختلفة، استحضرت شخصيات الحرب وجعلت كلاّ منها يدلي شهادتها التاريخية حول رؤيتها الخاصة.. ومن الطبيعي أن تكون لكل من هذه الشخصيات شهادتها المختلفة عن الشهادة الأخرى.." [6]

وقد تحدثنا عن شهادة كليب المتمثلة في وصاياه لأخيه سالم الزير، وأما الشهادة الثانية فهي لليمامة بنت كليب والتي تمثلت في رفض الصلح، وطلب المستحيل وذلك في عودة أبيها إلى الحياة، وذلك هو العدل في نظرها فنجده يتحدث على لسانها قائلا:

أبي .. لا مزيد!

أريدُ أبي، عند بوابة القصرِ،

فوق حصان الحقيقة،

منتصبا من جديد

...

ولا أطلب المستحيلَ، ولكنَّهُ العدلُ [7]

ومن خلال هذا يريد الشاعر أن يؤكد أن الحرية لا تتحقق إلا بالتضحية والفداء، وسفك دماء الأعداء مثلما سفكت دماء أبناء الوطن، ولهذا نجده يلجأ إلى مثل هذه الأحداث التاريخية يستقي منها مادته التي لا تنفد، كما نجده أيضا حريصا على نقل صدى تلك الأحداث التاريخية الدامية في نفسية القارئ، مقتنعا بأن التراث العربي هو الموروث القومي الذي يعيش في أعماقه.

ودائما وفي إطار التضحية والفداء، يقف الشاعر أمام موقعة "حطين"* التاريخية بما توحي به من كفاح وانتصار في زمنها الماضي، والذي يؤلم الشاعر في الحاضر هو هوان وانكسار حطين وتحولها إلى " أداة إعجاز واستحالة يتكئ عليها العرب العاجزون والمتقاعسون عن خوض حرب التحرير" [8]، فنجده في قصيدته "خطاب غير تاريخي على قبر صلاح الدين" يتحدث متأسفا :

وسنة .. بعد سنة..

صارت لهم "حطين"..

تميمةَ الطفل، وأكسير الغدِ العنين [9]

وبالرغم من ذلك تصبو نفسية الشاعر للأمل في مستقبل منتصر، وأن الذي حققته حطين من انتصارات في الماضي يمكن معاودته وتحقيقه في الزمن الحاضر وقد أصبحت مهيأة لتحقيق ذلك يقول الشاعر:

رأيتُ في صبيحة الأول من تشرين

جندك .. يا حطين
يبكون، لا يدرون..
أن كل واحد من الماشينَ
فيه صلاح الدين! [10]

ويشير الشاعر في قصيدته "سرحان لا يتسلم مفاتيح القدس"، إلى مجازر أيلول عام 1975 في الأردن، والتي كانت" تمثل جولة حامية من جولات الصراع بين كل الجماهير العربية وحركة تحرّرها القومي والاجتماعي ممثلة بالمقاومة الفلسطينية، وبين كل القوى الإمبريالية والصهيونية والرجعية العربية ممثلة بالنظام الملكي الأردني" [11]، وقد أخذ أمل دنقل بهذه الحادثة، وصورها في هذه الأبيات :

منظر جانبي لعمّان عام البكاء
والحوائطُ مرشوشةٌ ببقايا دم لعقته الكلاب
ونهودُ الصبايا مصابيح مطفأة ..
فوق أعمدة الكهرباء
منطرٌ جانبيّ لعمان؛
والحرس الملكي يفتش ثوب الخليفة
وهو يسير إلى "إيلياء"
وتغيب البيوت وراء الدخان
وتغيب عيون الضحايا وراء النجوم الصغيرة
في العلم الأجنبي،
ويعلوا وراء نوافذ "بسمان" عزف البيان! [12]

فقد وقف الشاعر عند تصوير هذه الحادثة التاريخية المعاصرة وأحداثها المأساوية، والتي تركت – بلا ريب- أثرا عميقا في نفسيته، ولعل استلهامه للتاريخ العربي الحديث يعد عنصرا فعالا في تجربته الشعرية ، فمثلما تعامل مع الأحداث التاريخية القديمة، تعامل مع الأحداث التاريخية الحديثة، والتي وجد فيها منبعا ثرا من الدلالات الإيحائية التي تخدم رؤاه الشعرية، وتقربه أكثر فأكثر إلى قلوب متلقيه.

2- الشخصيات التاريخية :

عكف أمل دنقل على استحضار الشخصيات التراثية في أعماله الشعرية بكثافة، إذ استطاع أن يعيد إحياءها وفق رؤيا شعرية تتلاءم مع الحاضر، فدخلت هذه الشخصيات عالمه الشعري وهي محمّلة بدلالات جمة فكرية كانت أو نفسية، ويمكننا تصنيف هذه الشخصيات إلى نوعين : شخصيات رئيسية تتمحور عليها قصائده، وأخرى ثانوية جاءت جزءا من السياق القصيدة أو عبارة عن إشارات عابرة.

أ- الشخصيات الرئيسية:

من الشخصيات المهمة التي سجلت حضورا فعالا في شعره، والتي مثلت صورة صادقة عبّر من خلالها الشاعر عن إحساسه بالهزيمة؛ هزيمة العرب في حزيران 1967، وهنا يمكننا القول أن هذه الهزيمة هي بداية شهرة الشاعر، والدافع الأساسي في لجوئه إلى التراث العربي المليء بالتجارب الإنسانية، التي تحض على الالتزام كون الشاعر أمل دنقل شديد الارتباط بتراثه العربي مستسلما لأسئلة قضّت مضجعه مفادها: الحرية، الحق، والجمال، فـ"الحرية تأخذ الأوليّة لأنّ الحق مرتبط

بتحقيقها والجمال نتيجة لتحقّقهما" 13 هذا ما أكّده أمل دنقل بغية إبراز موقفه غير المحايد فالشاعر المحايد في نظره شعره منه إليه لأنّ حياد الإنسان يقتل في داخله الطموح 14، فأمل دنقل يدرك مسؤوليته تجاه الكتابة عن الواقع وما يفرضه من التزام نحو الوطن الذي أصبح قضيّة تراثية يتداول ذكرها الشعراء، وتتوارث سماعها الأجيال، وذلك وعيا منه أنّ الشيء الذي يمكن التمسك والاحتماء به في هذا العالم المليء بالتناقضات هو التراث العربي الراسخ في ذاكرة القارئ العربي ومن ثم كان لشخصية "زرقاء اليمامة"** حضورا بارزا ومحوريا هادفا .

يعد حضور زرقاء اليمامة المشهورة في التاريخ العربي بحدة نظرها حضورا مماثلا مع ما تعانيه نفسية الشاعر إزاء ذاك الوضع السيئ، فقد "عبر من خلال قصتها مع قومها عن موقف السلطة من المثقف الذي رأى ما لم تره، وكان في رؤيته إرهاصا بالأحداث، بيد أن السلطة تغافلت عن رؤيته " 15 ، فجاءت قصيدته "البكاء بين يدي زرقاء اليمامة" كرد فعل للهزيمة أكد من خلالها التشابه بين الماضي والحاضر، فنجده

يتحدث متأسّفا منهارا:

أيتها العرّافة المقدسة..

ماذا تفيد الكلمات البائسة؟

قلتِ لهم ما قلتِ عن قوافل الغبار..

فاتهموا عينيك، يا زرقاء بالبوار!

قلتِ لهم ما قلتِ عن مسيرة الأشجار

فاستضحكوا من وهمك الثرثار!

وحين فُوجئوا بحدّ السيف : قايضوا بنا..

والتمسوا النجاة والفرار! [16]

ونجد أيضا حضورا أثيريا لشخصية ابن نوح في قصيدته "مقابلة خاصة مع ابن نوح"، حيث يلجأ الشاعر إلى القصة القرآنية ليستقي منها شخصية ابن نوح، ليضمها إلى الشخصيات التاريخية، وقد وظفت هذه الشخصية تجسيدا لموقفه المصّر على البقاء في الوطن، ومحاولة تغييره من دون التخلي عنه بالنزوح منه.

الهوامش والإحالات

1 – إبراهيم نمر موسى، توظيف لشخصيات التراثية في لشعر لفلسطيني لمعاصر، عالم لفكر، لعدد02،لمجلد 33، لكويت، أكتوبر، ديسمبر، 2004،ص 117.

2 – أنظر، محمد أحمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، محمد أبو فضل إبراهيم، أيام العرب في الجاهلية، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1988،ص142.

3 – أحمد الدوسري، أمل دنقل شاعر على خطوك النار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 2004، ص173.

4 – أمل دنقل، الأعمال الشعرية، مكتبة مذبولي ، ص399،396،394.

5 – المصدر نفسه، ص395.

6 – أمل دنقل من حديث له لمجلة آفاق عربية 1981، نقلا عن "تذيل" في آخر المجموعة من أعماله الشعرية، ص427.

7 – الأعمال الشعرية، ص410.

* – حطين: موقعة حربية شهيرة تمثل منعطفا في تاريخ الصراع العربي ضد الصليبيين، حيث استطاع القائد المسلم " صلاح الدين الأيوبي" أن يتصدى لجحافلهم وأن يشتت شملهم ويعمل فيهم قتلا وجرحا حتى بدد جيشهم وأسر مليكهم في الخامس من يوليو سنة 1187م/ 583هـ ، وخلدت هذه الموقعة اسم القائد العربي " صلاح الدين".

8 – منير فوزي، صورة الدم في شعر أمل دنقل، مصادرها، قضياها، ملامحها الفنية، دار المعارف، (ج.م.ع)، ط01، 1995، ص59.

9 – الأعمال الشعرية، 470.

10 – المصدر نفسه، ص321.

11 – سهيل الخالدي، مجازر أيلول في الرواية العربية، مجلة أقلام، العدد السابع، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، نيسان، السنة الثالثة عشر، 1978، ص05.

12 – الأعمال الشعرية، ص348.

13– أنس دنقل، أحاديث أمل دنقل، مطابع نيولوك، القاهرة، 1992،ص 5.

14 – أنظر، المرجع نفسه، ص5.

**– زرقاء اليمامة هي فتاة جديس التي جاء حسان بن تبع ملك حمير يهاجم قومها فرأت جيشه على مسيرة ثلاثة أيام وأنذرت قومها فلم يصدقوها، وقد عرف حسان بقدرة الزرقاء على الرؤية من بعد فأمره جنوده أن يقطع كل منهم شجرة ويحملها على كتفه تضليلا للزرقاء ففعلوا، وعادت الزرقاء تخبر قومها بهذا فكذبوها حتى داهمهم جيش حسان فأبادهم، واتى بالزرقاء ففقأ عينيها، فإذا فيها عروق سود، فقال لها حسان ما هذا السواد في عروق عينيك؟ قالت : حُجَير أسود يقال له الإثمد، كنت أكتحل به، وكانت اليمامة فيما ذكروا أول من اكتحل بالإثمد، أنظر، جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، تاريخ الرّسل والملوك، ص630.

15 – منير فوزي، صورة الدم في شعر أمل دنقل، ص55.

16 – الأعمال الشعرية، ص163.